بدائع الفوائد في سورة الكافرون
في رؤية ابن قيم الجوزية
عرض ودراسة
د/ أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
 المساعد بالكلية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وکفى ، ونصلى ونسلم على نبيه المصطفى ، خاتم الرسل وسـيد الأنباء الذي أوضح الدليل وآثار السبيل.

وأشهد أن محمدًا عـبده ورسـوله القائل " خيركم من تعلم القرآن وعلـمه" (1)
فاللهم نسألك أن تعلمنا القرآن وأن تفقهنا القرآن ، وأن توفقنـا للعمل بما في القرآن يا رب العالمين.

أما بعد... فان أهم ما يشغل الإنسان به نفسه كتاب الله حفظا وتكلاحة ، وتدبيرا وتفسيرا خاصة في عصر هذا زاغ فيه الناس وتأهوا عن منهج ربهم وابتدوا عن كتابه إلا من حماة الله وامتن عليه ففضلها ، فوفقه للطاعة وغيّبته لخدمة دينه ، ناهجا في ذلك نهج سلف الأمة ، الذين جاهدوا في خدمة هذا الدين أيما جهد

ومن هؤلاء العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية ، صاحب التصانيف المعروفة والمواقف المشهورة في خدمة الدين وعلـمه .

وقد نهـنئ هذا العالم الجليل إلى سورة " الكافرون " بما ذكر فيها من فوائد وفوائد في كتابه القيم " بدائع الفوائد " بما لم يذكره غيره ، فأجبته أن أفرد فواـنـده تلك ببحث بلغت النظر إلى هذه السورة العظيمة من جهة ، ثم إلى ابن القيم في سعة

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري كتاب فضائل القرآن باب حبركم من تعلم القرآن وعلـمه . 90 /
الفهم ونفاذ البصيرة في التعامل مع القرآن الكريم من جهة أخرى وقد أخذت من
عنوان الكتاب الذي تكلم فيه ابن القيم عن هذه السورة وهو كتاب "بديع الفوائد"
اختارت عنوان بحثي هذا حيث وسمته بـ "بديع الفوائد" في سورة الكافرون في
رؤية ابن المقيم".

ومنهجي في تلك الدراسة يتمثل في عرض كلام ابن القيم ثم دراسة وتحليل ما يحتاج
منه إلى تحليل، أو توضيح ما يحتاج إلى توضيح، أو التعقب بالتعليقات أو الرد أو
بما عبّاس أن يكون منهما للكلام ابن القيم من كلام المفسرين.

وقد أوطن للكلام ابن القيم أحيانا بما يدل عليه، ويساعد على فهمه.

وأما خطط في فيه، فتعتمد على مطالب ثلاثة.

الأول : عنوان لحجة عن حياة ابن القيم وجهوده في
خدمة العلوم الإسلامية.

وفيه عرفت بابن القيم من خلال بيان اسمه ونسبه وكنيته وولديته، ولدته
ثم نشأته وثقافته، ثم شيوخه في العلم وتلاميذه، ثم ثنا العلماء عليه ثم وفاته ثم
أهم المؤلفات التي خلفها.

الثاني : عنوان ( بين يدي سورة الكافرون).

وفيه عرفت بسورة "الكافرون" من خلال بيان الأتى.
اسم السورة - زمن نزولها - عدد آياتها - مناسبتها لما قبلها من الآثار
التي وردت في شأنها وفي فضلها.

الثالث : عنوان بدائع الفوائد في سورة الكافرون كتيب
قيم الجوزية.

و وهذا المطلب موضوع البحث صلب، وفيه نقّلت عن ابن القيم ما ذكره من
مسائل وفوائد حول السورة، وقامت بدراسة في ضوء أقوال المفسرين وغيرهم.
المطلب الأول
لمحة عن حياة ابن المقيم
وجهوده في خدمة العلوم الإسلامية

اسمته ونسبه وكنيته ولقبه وولادته:

هو محمد بن أبي بكر بن سعد بن جرير الزرعي - نسبة إلى بلدة أزرع
قرية من حوران - ثم دمشق - أبو عبد الله شمس الدين ورحمه الله في السابع مـن
صفر سنة إحدى وتسعين وستمئة من الهجرة، وكان أبوه فيما على الجوزية وهي
مدرسة دمشق ولذا عرف بابن قيم الجوزية.

نشأته وثقافته:

ليس غريبًا على وليد أبوه قيم لمدرسة الجوزية بدمشق أن ينشأ منشورًا
علمية، فما لا شك فيه أن أبابه قد ها له المناخ الطيب ليتزعم به الثقافة على اختلاف
أنواعها.

وقد كان ابن القيم - رحمة الله - موسوعة علمية، ودائرة معارف في علوم
عصره، فألف في العقيدة والفقه والأصول والسيرة والحديث و التفسير. وإن كان لم
يولف فيه - آي التفسير - كتابًا كاملا بل هي بمثابة مبتعثة في كتاب الكثيرة التي
تركها، خاصة آيات معينة أو سنور قضا، أو بموضوعات وردت فيها آيات أو
كان رحمة الله يُد أن يكتب تفسيرًا كاملا يعضفي فيه على نهجه المميز في التفسير.
وبرجو الله أن يعينه على ذلك.

قال رحمة الله بعد أن ينتهي من الكلام عن سورة الكافرون في سفره
الفسيف "بائع الفوائد": قال: "عسى الله المان فضلية الواسع العلماء إلى عطاؤه
على غير قياس المعلومين أن يعين على تعليق تفسير - على هذا النمط وهذا
الأسلوب، وقد كتب على مواضيع متفرقة من القرآن بحسب ما ينصح من هذا النمط
وقت مقامى بمكة وبالبيت المقدس والله المرجو إنما نعتمته (1).

(1) بائع الفوائد 1/ 141
لكن مع ذلك فما تركه ابن القيم في التفسير جدير بأن ينتقى وأن يدرس لأن
لاين القيم فكرا خاصا في التفسير لم يتأثر فيه بغيره وقد جمع بعضهم كثيرا من هذا
التراث الذي خلفه ابن القيم في التفسير تحت عنوان "التفسير المقيم" (1)

شيوخه في العلم:

تلقي ابن القيم رحمة الله العلم على يد شيوخ كثيرين في مختلف العلوم ومن
هؤلاء:

1- والده أبو بكر "قيم الجوزية" أخذ عنه الفرائض وكان بارعا فيها.
2- المجد الحر بن إسماعيل بن محمد الفراء شيخ الحنتبة بدمشق، أخذ عنه
الفرائض كذلك بعد أن أخذها عن والده، وأخذ عنه كذلك الفقه.
3- بدر الدين ابن جماعة الفقيه الشافعي وصاحب التصانيف المعروفة.
4- ابن مفلح الإمام الحنابل المشهور وهو الذي قال عنه ابن القيم: ما تحت قيمة
الفلك أعلم بمذهب أحمد من ابن مفلح.
5- الشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن نائيم.

وهو الذي كان له الأثر الكبير على ابن القيم، وقد تبنى ابن القيم كثيرا من
آرائه التي سببت له الإذاء والمحقى التي تحملا بصبر الصابرين.
وسمع كذلك من شهاب الدين النابلي، والقاضي تقي الدين سليمان، أبي بكر ابن
عبد الدائم، وأبي نصر الشيرازي ................... (1)

تلاميذه:

تنتمى على يد ابن القيم كثير من صاروا بعد قلاعلا شامخة في العلم وأبرزهم
الحافظ ابن كثير المفسر المعروف صاحب تفسير القرآن العظيم وصاحب البداية

(1) طبعته مطبعة السنة المحمدية سنة 1344 م ثم توزع طبعة بعد ذلك في طبعات مختلفة.
(1) طبعت الموتستر للمداري 2/ 94.
قال عنه ابن كثير: فسمع الحديث واجتمع بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصولين ... وكان حسن القراءة والخلق، كثير التوحد لا يهدي أحدا ولا يؤذن ولا يستعديه، ولا يحكم على أحد، وكانت من أصحاب الناس له وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ... (1)

وقال الداوودي: تفنن في علوم الإسلام وكان عارفا بالتفسير لا يجري فيه، والأصول الدين، وإلاإنها المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، وفقائق الاستنباط منه لا يلتقى في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية ن وله فيها اليد الطولى ... (2)

وقال ابن حجر: كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفا بالخلاف، ومذاهب السلف. (3)

وفاته:

وقد توفى رحمه الله ليلة الخميس الثالث عشر من رجب وقت أدفان الفضاء سنة إحدى وخمسين، وسبعين من الهجرة المباركة، وله من العمر سبعون سنة. أمضاناها في خدمة الدين والعلم، وصلّى عليه بعد صلاة ظهر اليوم التالي لوفاته، بالجامع الأموي ودفن عند والدته، بمقابر الباب الصغير. (4)

أهم المؤلفات التي خلفها:

خلف رحمه الله العديد من المؤلفات التي زخرت بها المكتبة الإسلامية اكتفى بذكر بعضها خشية الطول الذي لا يتناسب مع المقام ...

(1) مبادىء والنهاية 7 / ٦٥٧
(2) طبقات المسيرين ٢ / ٩٤
(3) الدور الكامنة ٤ / ٢١
(4) مبادئ والنهاية ٧ / ٦٥٧
أقول: من هذه المؤلفات ما يلي:

1- إعلام الموقعين عن رب العالمين.
2- أصول التفسير أشار إليه في جلاء الأفهام ص 92.
3- إغاثة اللفاف من مصائد الشيطان.
4- أمثال القرآن.
5- أقسام القرآن.
6- بدائع القوائد.
7- الروح.
8- زاد المعاد إلى هدى خير العباد.
9- جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام.
10- المنار المنيف في الصحيح والضعف.
11- طريق الهجرتين وباب السعادتين.

وغير ذلك من الكتب التي لا يتسع المقام لذكرها (1)

المطلب الثاني

بين يدي سورة { الكافرون }

هذا مطلب رأيت من اللائق أضمه إلى البحث، أعرفه فيه بسورة الكافرون.

من خلال بيان:

اسمها - زمان نزولها - عدد آياتها - مناسبتها لما قبلها - الأشاع التأبه
وردت في فضالها.

أبين كل هذه المسائل في هيئة تتناسب مع بحث في حولية، أى في إيجاز
غير مخل.

(1) انظر ترجيح في البداية والنهائية 757، طبقات المفسرين للداروي 5 / 2، ذيل طبقات الخباشبة 2 / 53.
اسم السورة: هذه السورة تسمى سورة الكافرون وسميت بذلك لأنها
نازلة في الكافرين وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم لهم براءته من دينهم
والإخلاص للعبادة لله. وقد ذكر لفظ "الكافرون" في أول آية من السورة، فكان ذلك
داعيا لأن تسمى السورة سورة "الكافرون".

وقد نقل السيوطي في الإتقان: أنها من السور متعددة الأسماء وكذلك
الفخر الرأي حيث ذكر أنها تسمى سورة (المنايدة) والأخلاق، والمثقشة.
ومن الإتقان تسمى المقذوفة والعبادة (مقذوفة) والمثقشة (أي المبرئة من النفاق) وهو
اسم من أسماء سورة الإخلاص "قل هو الله أحد" كذلك وقد تثنى السورتان في قرآن
المثقشتان (أي الكافرون والأخلاق).

ومن ثم فإن السورتين واحد وهو التوحيد، فسورة "الصمد" تهتم بتوحيد
العلم والبهين، وسورة الكافرون تنفى بتوحيد العبادة، وسوف يأتي في ثانيا البحث
تحقيق قيم لابن القيم حول الارتباط بين السورتين.

زمان نزولها:

ذكر السيوطي في الإتقان (3) هذه السورة ضمن السور المكية.

ولم يذكرها ضمن السور المختلف فيها، ومن قبله فعل ذلك الزركشي.

لكن نقل القرطبي أحد قولين لأبن عباس يقضي بدمتينها، وكذلك قال قتادة
والضحاك. (4)

```
(1) مفاتيح العين 16 / 614.
(2) الإتقان 1 / 47.
(3) حاشية الجمل 4 / 396.
(4) الجرائد 1 / 193.
(5) الفرقان 1 / 33.
```

بعد إلقاؤ الشيء وطرده لفقة الاعتذار به ولذلك يقال: نبذت نبذ النسل الخلق، وهذه السورة قصدت بذل
الكافرين وبرأت الرسول صلى الله عليه منهم، وأظهرت فساد دينهم وحثت مضموها على نبذ الكفر ولذا

حيث هذا الاسم:
ويتزوج لدى أن السورة مكية لا شبهة في ذلك لما يأتي:

1- السورة واضحة فيها مسلمة القرآن أكمل الذي يهتم بالعقيدة وتنقية منها الشروط، والسورة قد أتخذت العقيدة لها موضوعاً فارضت إلى عبادة الله وحده، ونبدأ ما سواه من الألفات التي اختارها المشركون شركاء لله وأندلنا له جاء ذلك الإرشاد في تلك الصفحة التي صفح النبي صلى الله عليه وسلم بها الكافرون، حين أعلن لهم براعته مما يعدون وتوجهه بالعبادة الخالصة إلى الله وحده، وأن أدلهم لن ننال منه شيء، وهؤلاء المشركون كانوا بمكة ولم يكونوا بالمدينة.

2- سبب النزول الذي ساقه السيوطى وغيره يؤيد ذلك أيضاً. فقد جاء في لباب النقول ما نصه: "أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قرشي دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعبدو مالاً فيكون أغني رجل بمكة ويزوجوا ما أراد من النساء فقالوا: هذا لك يا محمد، وتفك عن شتى الهمتا ولا تذكرها بسوء. فإن لم تفعل فاعبد آلبتة سنة قال: حتى أنظر ما يأتي. من ربي، فأتفلل الله (قل يا أيها الكافرون) إلى آخر السورة، واتفلل (قل أتفرحوا جاهلون) سورة الزمر : 14.

وفي رواية أخرى ذكر من القرشيين الذين واجهوه النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر و يؤهلان بن الغيرة وال습 بن وائل و السود بن المطلب وأميته بن خلف. (1)

وأين هؤلاء من المدينة بل هم كانوا بمكة ولم يذهبوا إلى المدينة قط حتى يواجهوا بمثل هذا الخطاب فكون السورة مكية مما لا يحتاج إلى كلام كثير خاصنا أن راوي هذا السبب هو ابن عباس الذي نقل عنه قول آخر بأن السورة مدنية.

عدد آياتها:

يبلغ عدد آيات سورة "الكافرون" ست آيات، لكن مع قلة هذا العدد فقد استندت السورة على الموضوع الذي من أجله خلق الله كل ما في الكون، بل الكون ذاته.

(1) لباب النقول من 307 وانظر الطبري 30، تفسير بن كثير 4/ 560.
وهو توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له سبحانه. كل ذلك في أسلوب عالٍ وذوق رفع معجز. لا يداعي كلام البلغاء والفصحاء.

**مناسبتها لا قبلها: السورة التي قبلها هي سورة الكوثر.**

ومما هو واقع أن القرآن الكريم في ترتيب سورة وآياته راعٍ للمناسبه في ذلك بحيث لا تجد سورة ولا آية تتبو عن سابقتها ولا لاحقتها بل دائما السياق يمهد لللحق، واللاحق يتم السابق ويؤكده.

إذا أردنا التحقق من هذا في ضوء هذه الدراسة التي معناها، فإن أوجه التناسب بين السورتين واضحة منها:

1- إنه تعالى لما قال في سورة الكوثر (فصل لربك وتحرأ) أمرا نباهه صلى الله عليه وسلم بعبادته والتوجه إليه وحده فيما يفعل من أعمال الخير لما كان ذلك دعاؤه في سورة الكافرون إلى مخاطبة الكافرين بهذه الحقيقة ومواجهتهم بها بإعلام الإخلاص في العبادة لله والبراءة مما يعبدون لأنه يعبد الإله الحق.

وهما يعودون أصناها لا تقع ولا تضر.

2- لما وصف المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أبتر أي مقطوع من الوالد والولد ومن فقومه، وزد القرآن عليهم بأن من يبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأبتر المقطوع من رحمة الله لمكا كان الأمر كذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يناديهم كذلك بوصف مذموم كما وصفوه من قبل بوصف مذموم ليس فيه. فقال له (قل يا أيها الكافرون) مع الفارق الواضح بين الوصفين فهم وصفوه صلى الله عليه وسلم بما ليس فيه، وهو وصفهم بما هو فيه.

3- ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اطمأن فواده حين أعطاه الكوثر ووصف مبضعه بأنه الأبتر، بعد ذلك أمره الله بقوله (قل يا أيها الكافرون) أي نادهم بهذا الاتهام الذميم بالنسبة لهم ولا تباهم، فقد منحنى.

(1) انظر هذا الرجوع مفصلًا في ناسق الدور السبوعي سنة 159.
القوة الروحية والمعنوية والقدرة على مواجهة الكفار بهذا الخطاب حين منحناك الكثور وحين وصفنا مبغيك بأنه الأبرت.

4- ومنها أنه لما قال له الله صلى الله عليه وسلم ( إن أعطينا الكثور ) فقد وجبت نظره صلى الله عليه وسلم إلى أنه تعالى هو وحده صاحب إنعام عليه، وأم كان كذلك فهو وحده الحقيق بإن يعده فقال له ( قال يا أيها الكافرون لمن أعد ما تعيدون ) إلا غير ذلك من أوجه التناسب بين السورتين وهى كثيرة أمام من يزيد أن يسبه ويتنبى.

من الآثار التي وردت في شأن سورة الكافرون وفضلها:

ورد في حرص النبي صلى الله عليه وسلم على قراءة سورة " الكافرون " في الصلاة أحاديث عدة أو كذلك في تنويه النبي صلى الله عليه وسلم بفضلها والإشارة إلى مكانتها ومن ذلك ما يلي:


قال الترمذي: هذا حديث حسن

2- وأخرج أبو داود بسنده عن فرو بن نوفل عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال التوفل: " أقرأ ( قال يا أيها الكافرون ) ثم ثم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك " (2)

(1) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في " إذا زلزلت " حديث رقم 2895
(2) أبو داود: كتاب الأدب - أبواب اليوم - باب ما يقال عند اليوم 4 / 313 وقد أشار له السيوطي في الجمع، الصغير 171 برمز الصحة.
هذا مما ورد في فضله ووجائب ذلك قد ورد ما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحيى بأيئن بعض الصلوات منها ركعتان - الفجر وركعتان بعد المغرب أو الوتر، وثبت أنه قرأ بهما في ركعتي الطواف في حجة الوداع.

وهناك الروايات الدالة على ذلك:

1- أخرج مسلم بن سعد عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الفجر (قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد)".(1)

2- وأخرج ابن ماجة بن سعد عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الركعتين بعد صلاة المغرب (قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد)".(2)

3- وأخرج بن ماجة بن سعد عن أبي بن كعب قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بسبيح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد".(3)

4- وجاء عند مسلم في حديث حجة الوداع عن جابر ما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى خلف مقام إبراهيم ركعتين بعد الطواف وفيه "كان يقرأ في الركعتين قل هو الله أحد. وقل يا أيها الكافرون".(4)

قال النووي: ممنى يقرأ في الركعتين الأولى بعد الفاتحة (قل يا أيها الكافرون) في الثانية بعد الفاتحة (قل هو الله أحد)".(5)

وقد جاء في حديث جابر عن الترمذي "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الطواف بسورة الإخلاص "قل يا أيها الكافرون". وقل هو الله".(6)

(1) صحيح مسلم على شرح النووي كتب الصلاة، باب استجابات ركعتي الفجر، 3/ 89.
(2) سنن ابن ماجة كتب الصلاة، باب ما قرأ في الركعتين بعد المغرب، 1/ 379.
(3) سنن ابن ماجة كتب الصلاة، باب ما جاء فيما قرأ الوتر، 2/ 381.
(4) صحيح مسلم على شرح النووي كتب ختم، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، 4/ 283.
(5) شرح النووي على صحيح مسلم، 5/ 573.
(6) صحيح مسلم على صحيح مسلم، 4/ 574.
أخذه أحمد بن عبد الوزي بن عمران وهو ضعيف ويقوى الحديث ما عند مسلم.
وهنا قدم ذكر سورة الكافرون على سورة الإخلاص حتى لا يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يokus في القراءة. وهذا ما فطن إلى التنبئ عليه النّيوي رحمه الله.
وأبعد فاهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بقراءة سورة الكافرون في هذه الصلاوات دليل على فضله. واقتران سورة الإخلاص بها دليل على قوة الترابط بين السورتين وهو ما مكرر الإشارة عنه، وما سيأتي بيانه إن شاء الله في ضوء كلام ابن القيم.
المطلب الثالث
بدائع الفوائد في سورة الكافرون
لأبي قيم الجوزية - آيات السورة الكريمة
قال تعالى:
"قل (1) يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد.
ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين.
سورة آياتها ستبدد أنها اشتملت على أشرفهم الموضوعات وأسمائها، وأفضلها وأعلاها، وهو توحيد الله الخالص بالعبادة الخالصة وقد ضمت السورة إلى شرف هذا المطلب حلاوة الأدب وبراعة التعبير، وجمال النظم كل هذا وجهة نظر العلامة النابي ابن القيم إليها، فقام بدراسةها في كتابة النفيض "بدائع الفوائد"."

(1) أمرت به الرمدي في كتاب الحج ما يقرأ في ركن الطراف.
(2) ذكر العلامة نور الدين الرزي في تفسيره ثلاثة وأربعين عادة يقول تعالى "قل " في مسند سورة الكافرون منا أن قوله تعالى "يا أيها الكافرون" على ما فيه من علقة وخشونة قد يتعارض مع ما يطبع عليه النبي صلى الله عليه وسلم وما أمر به من الرفقات، فإنما قال تعالى "فيما رحمة من الله كتب لهم" سورة آل عمران آية 39 فحاء هذا الأمر "قل "ليبدأ أنه مأمور بهذه الغلطة. انظر مفاتيح الغيب 16 / 571 مختصرًا. ومنها أن موسى عليه السلام كان في طهيه المشروعة قليما أرسل إلى فرعون قبل له - ولاه - تقول له فولا لنا يا موسى:
(3) وأما محمد صلى الله عليه وسلم فلما أرسل إلى الخلقي آمر بإظهار الخشوعة تبديه على أنه في عبادة الرحمة قبل له: "قل يا أيها الكافرون" انظر هذه الوصية في مفاتيح الغيب 16 / 571.
حيث ذكر في بيان فوائدها فرائض لا تكاد تجدها في غيره من الكتب، فأدع في ذلك وافاد، وأحسن وأجاد، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.
وإن من حق القارئ علينا أن نكشف له عن أن ابن القيم رحمة الله لم يكن يقصد في البداية الكلام عن السورة، أو الكشف عن حقائقها، وأسرارها، ولكنه كان يتكلم عن أقسام ما "فذكر منها الموصولة ثم عرض لـ" ما "في قوله تعالى "لا أعيد ما تعودون، ولا أتمن عابدون ما أعيد..."
فجذب نظره إلى السورة بتمامها بما اشتملته عليه من شرف المعنى وجمال المبنى.
فروج يتمكل عنها في مسائل:
الأولى: عن "ما حقيقتها وتفسيرها. وهو مقصده الأسمى في الحديث عن السورة.
وبعد أن انتهى من بيان هذه المسألة قال:
وإذا أقدم أقصى بنك الكلام إلى هنا، لنذكر فائدة ثانية على ذلك، وهي تكرير الأفعال في هذه السورة، ثم فائدة ثانية - وهي كونه كرر الفعل في حق نفسه بنفسه المستقبلي في الموضعين، وأتى في حقهم بالماضى... الخ.
ثم ذكر بقية الفوائد أو المسائل التي ستعرض لـها إن شاء الله بالبيان والتحليل.
وإذننا نبيحة أن في السورة فوائد وآسرارا، وكتابا تفسيرية لم يذكرها ابن القيم، وتناولها غيره من المفسرين وهذه سوف أذكرها أيضا في البحث كنتمة لكلام ابن القيم عن السورة مع التمييز الكامل بين كلام ابن القيم وكلام غيره، غير نـاس متعلقا أن الموضوع الرئيسي هو كلام ابن القيم عن السورة الكريمة.
وقد هنا الآن الشروع في ذكر هذه المسائل وتلك الفوائد:
الأولى: قول تعالى (لا أعيد ما تعودون، ولا أتمن عابدون ما أعيد...)

(11) بدائع الفوائد: 134/1
يذكر ابن القيم هاتين الآيتين عند حديثه عن "ما وأقسامها فبدأ بالموصولة مبيناً أنها في حقائقها للإبهام، وهي في ذلك "تخالف" الذي "بديل والكلام لابن القيم" أنها تقع على كل شيء وتقع ما ليس بشيء إلا ترك تقول: أن الله يعلم ما كان وما لم يكن.

ويذكر ابن القيم كذلك أن "ما تخالف" الذي "في أن" الذي "نتهى وتجمع وأما "ما فلست كذلك... الخ".

ثم ضرب أمثلة من القرآن الكريم تدع كلامه عن "ما إلى أن وصل إلى آية سورة الكافرون هاتين (لا أعد ما تعبدون ولا أتمنى عبادون ما أعد) حيث بين أن ما ط في الآيتين هي الموصولة.

وبعثه فالمعنى لا أعد معوبكم ولا أتمنى عبادون معوبى. ومعوبهم هو الأصناص التي عبدها فذان أنها تقريبهم إلى الله زلفى. وأما معوبه صلى الله عليه وسلم فهو الله الخالق البارئ المصور.

وشتان بين من يعبد الإله الحق العبادة الحالية. وبين من يعبد حجارة لا تنفع ولا فضل. فتلك عبادة الجاهل الذي لا يدرك معنى الألوهية. فكيف يظن في هذه الحجارة آتأه تقرب إلى الله؟ يقول ابن القيم: "إمتاعهم - يعني المشركين. من عبادة الله ليس لذاته بل كانوا يظنون أنهم عبادون الله ولكنهم كانوا جاهلين به فقوله (ولا أتمنى عبادون ما أعد) أي لا أتمنى عبادون معوبى، ومعبودة هو صلى الله عليه وسلم كان عرف به دونهم وهم جاهلون به. (3) ثم يعرض ابن القيم لرأي ثان في "ما" فيقول:

وقال آخرون: إنها - أي "ما" - هذا مصدرها لا موصولة أى لا تعبدون عبادتي - أي ولا أعد عبادكم - ويلزم من تنزههم عن عبادته تتزدهم عن المعبد. لأن العبادة متعلقة به. (3)

(1) بدل الحروف: 1 / 131.
(2) المميز نفسه 3 / 193.
(3) اقترب في هذا الرأي حديث الجمل 4 / 966. ونقل الجمل عن بعضهم رأيا يقول: "ما" في الآتيين الأولين من المصدر موصولة وفي الآتيين الآخرين مصدرية فالآتيان معبد الآتيان والأخريان مغفرة العبادة. وهذا ما رجحه أيضا الإمام محمد عيد أبناء تفسير السورة الكرامة وقال بعد أن ذكر مثل ما نقل الجمل قال:
وأيما ما لا يرضيه ابن القيم، بل يعقب عليه بقوله: وليس هذا بشيء إذ المقصد برأيه من معبدهم، وإعلانه أنهم بريون من معبده تعالي في المقصود المعبد لا العبادة.

ثم يتجاوز ابن القيم الحديث عن "ما" من حيث كونها مصريبه أو موصولة إلى جزئية أخرى. وهي لذا عبر بما دون "من" في قوله (ما أعيد) مع أن مما لغير العاقل؟

يذكر ابن القيم الإجابة عن ذلك في أقوال جعله تتفاوت للحديث عن "ما" ولم يعنون لها بعنوان بعده عليها، ولا يسأل كهذا إلى طرحته بلفت النظر إليها. وهذا ما تدراكه أثناء العرض.

يقول ابن القيم في الإجابة عن هذا السؤال الذي طرحته:

1 - قول إنهم كانوا يقصدون خلافته صلى الله عليه وسلم جسدا له وأنفه من اتباعه، فهم لا يعبدون معبدة، لا كراهية لذات المعبد، ولكن كراهية لا تباعية صلى الله عليه وسلم وحرصا على خلافته في العبادة، وعلى هذا فلا يصح في النظام البديع والمعنى الربع إلا لفظ "ما" الإباحة ومطابقها الغرض الذي تضمنته الآية.

2 - وقيل - أي في وجه التعبير بما - السبب قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله تعالى - تعالى - (نمسا الله فنصيهم) النبوية: 67.

وقوله تعالى - (فمن أعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)

سورة البقرة: 194 فكذلك (لا أعبد ما تعبدون) ومعبدتهم.

لا يعقل ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فامستوى اللفظان وإن اختلاف المعاني، ولهذا لا يجيء في الأفراد مثل هذا بل لا يجيء إلا من كقوله تعالى:

(قل من يرزقكم) يونس: 31 (أيمن يملك السمع) يونس: 31.

---

"من معبدتهم الأولين الاحتفال النام في المعبد، ومعبدتهم الآخرين فامامت الاحتفال في العبادة" فلا معبدة واحد، ولا عبادتنا واحدة... انظر تفسير جزء عم ص 168.
(أمن يهدكم في ظلمات البحر والعُرَب) النمل: 42 (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) النمل: 44 (أمن يبدأ الخلق) النمل: 64 إلى أمثال ذلك 1. هـ.
وهو الذي ذكره ابن القيم هو ما يعرف عند البلاغيين بالسلوك، وهي ذكر
الشيء بنفي غيره ومؤثره في صحته تحقيقا أو تقليدا. (1)
ووافق أن الاعتراف بالسلوك هو على مذهب من يقول: إن "ما لا تقع
على آحاد أولى العلم، أما من يجوز ذلك وهو مذهب سبب فيه فلا حاجة عنده إلى هذا
الاعتراف." (2)
3- ويذكر ابن القيم وقته ثالثا في الإجابة عن السؤال المطروح قال فيه وعنده فيه وجه أقرب من هذا كله، وهو أن المعنى هذا معروف والمصروف
بكونه أهلا للعبادة مستحقا لها، فإن "ما الدالة على هذا المعنى - أي
الوصف - كانه قول: ولا أتم عابدين معويدي المصروف بأنه المعوي الحكـ:،
ولو أتى يلفظه " من "كانت إنما تدل على الذات فقط ويكون ذكر الصلة تعريفـ
، لا لأنه هو جهة العبادة: ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلا لأن يعبد تعريف
محض - وهو ما يفهمه التعبير بـ من - أو وصف مقتضى لعبادته - وهو ما أفاده
التعبير بما - فتأمله فإنه بدوي جدا. وهذا معنى قول محمد النحاة: إن "ما-
تأتي لصفات من يعلم. ونظيره - قوله تعالى: ( فانكحوا ما طلب لكم من
النساء ) النساء آية 30: لما كان الوصف هو المراد: وأنه السبب الداعي إلى
الأمر بالنكاح عبر بـ " ما " أي فانكحوا الطيبي من النساء ولا يصح التعبير هنا
بـ من " لأنها لا تدل على الوصف بل تدل على الذات. (3)
و تستطيع من خلال كلام ابن القيـم عن " ما " أن تكون رأيا له جامعا لكلامه
خلاصة: أن "ما " في الموضعين ( لا أعد معبود كـ: وهو الأصنام - ولا تعودون
معيوي - وهو الله وحدة. (4)

1) من الإجابة الجمل 4/ 598.
2) من الإجابة الجمل 4/ 598.
3) من الإجابة الجمل 4/ 598.
4) من الإجابة الجمل 4/ 598.
بإنهما عبر بـ: "ما في قوله (ما أعبد) وهي خاصة ما لا يعقل إلا على سبيل المشاكلة، أو على سبيل الوصف (1) أي ولا أنتم عابدون معبدى الموصوف بأنه المعبد الحق.

وفي تصویري إن رأى ابن القيم في ذلك له قيمة ووجاهته وتماسكه القول القائل بأن: "ما ط في الآيات الأخريين (ولا أنا عابد ما عبدت. ولا أنا عابدون ما أعبد) مصدرية ففي ذلك شمول وسعة حيث تكون الآيات قد نفت التوافق بينه صلى الله عليه وسلم وبين المشركين في المعبد أولا ثم في العبادة ثانيا.

أي هل لا يلتفتان مطلقا لا من ناحية الشكل ولا من ناحية الجوهر.

المشكلة الثانية: التي عرض لها ابن القيم في سورة الكافرون، وهي مشكلة تكرار الأفعال (أعبد، تعبدون، عبدتم) وأسم الفاعل المشتق منها (عابد، عابدون).

هنا نجد ابن القيم يقرر أن تكرار لفظ العبادة بصيغة الفعل أو اسم الفاعل ليست للتاكيد كما يقرر ذلك كثير من المفسرين (2).

ولكن كل صيغة منها - كما يرى ابن القيم - أفاقت إثبات العبادة النبي صلى الله عليه وسلم أن نفى عبادته للأصنام في زمن معين من الماضى والحال والاستقبال، وأفادت كل صيغة منها في ذلك الوقت إثباتات نقيض ذلك بالنسبة للكافرين.

وفي ذلك يقول ابن القيم:

فأما المشكلة الثانية فهي فائدة تكرار الأفعال، فقيل فيه وجه شتى نراد لا يعرض إلا يوجه واحد من هذه الوجه يستحسن ويفترض عليه ز وحاصل هذا الوجه عند ابن القيم أنه قوله (لا أعبد ما تعدون) نفى للحال والمستقبل ز وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) متابعة أى لا تفعلون ذلك فق. وقوله (ولا أنا عابد ما)

(1) وهذا إجابة الزمخشري في الكشف ٤/٩٩٣ حيث قال فإن قلت: فقم حاول ما "دون " من " فقت.
(2) القرآن الكريم ص - ١٣٢٣ ، حاشية الجاحظ ٤/٤٦٧ - تأويل مشكل القرآن ص - ٢٤٧.
عبدتم) أو لم يكن ذلك في قط قبل نزول الوحي (1) ولا هذا أتي في عبادتهم فقط
الماضي فقال (ما عبدتم) فقالوا: لم أعبد قط ما عبدتم. فقلت: (ولأ تآمن
عابدون ما عبدوا) مقابلة أي تكذبوا قط في الماضي ما أعبده أنتم دائما. وعلى هذذا
فلا تكرر أصلا. وقد استوفت الآيات قسمت القلبي منيا وحالا ومستقيلا عن عبادته
وعبدتهم بأيجر قط، وقشره وفهله. وهذا إن شاء الله أحسن ما كتله فيها للنكثر
عليه ولا تتحدا إلى غيره.

فإن الوجود التي تجت في موواضيعها (2) فعليه بها. هـ (3)

ولا يشك أن تفسر هذه الآيات بهذه الطريقة التي تجتها مؤسسة لمحاسان
 الجديدة أولاً من حملها على التكثير فمن المعلوم أن التأسيس أولى من التأكيده.

(1) قد يذكر على ذلك أن اسم الفاعل المنون العامب عمل الفعل، لا يكون إلا بمعنى الحال أو الاستقبال و" عابدون "
هنا عامل في "ما" وكذلك "عابدون". والجابر عن ذلك كما يقول صاحب النصوص الجليل: إنه عباسي
الحاكمة. كما قال تعالى: (ولقيهم باستذن ذراعه بالوصيد) الكهف: 18. النصوص الجليل: صـ 454
والمناسخ هنا أن تعرض لرأي صاحب الكفاح مسألة عن طريقة فإن قلت لنفتاحه فيه. فسأل صاحب
الکفاح: فإن كنت قلت قبل ولا أنت عابدون ما كتب، أي: ما عبدتم 4 قيت؟ لأنكم كانوا يموتون
الأعمال قبل البلم وهو لم يكن بعيد الله تعالى في ذلك الوقت. الكفاح: 4/ 132 قال في النصوص الجليل:
ورد على هذا أن أعظم العبادة التوحيد وكل الأبناء كانوا موحدين بقولهم في البينة: النصوص الجليل:
صـ 455 وقال ابن الأثير: واتخا أن صلى الله عليه وسلم كان يعبد قبل الوعي وسبخ في غار حضرة
وتحمل بالضرع دون الماضي في (أعيد) لأن الماضي لم تختص في العبادات الخاصة إلى علمه عن طريق
الروح، أو أن القصد تصوير عبادته في نفس السبع، واما توحيد الله ومعرفته فإن ذلك ذاها له صلى الله عليه
وسلم قبل البلم.

(2) من هذه الوجود ما ذكره الجميل عن الأحقاف الذي قال: إن المعلو لا أعبد السنة ما تحساسن ولا أتهتم
عابدون السنة ما تعدد أولنا أبدا في المستقبل ما عبدتم ولا تآمن عابدون في المستقبل ما أهستد: حسـ
حاسيج الجمل: 4/ 92 وحضنهم بعض الأول للاحتمال والثاني للبلاغ وقال بعضهم: كل واحد منهم يصولح
الحال ولا الاستقبال وراكب أنتما بالخال والثاني للاحتمال دعاء الأكبار، مقالة الفيض: 12/ 717،
318 وفق النصوص الجليل صـ 85 جاء الكلام مكرراً لأن مؤلفه كان مكررا حيث قالوا: يا محمد تعبد
آمينا كما مدة ويعبد ذلك كذا مدة ثم تعبد آمنا كذا مدة ويعبد ذلك كذا مدة فرد الجواب مكررا ليطلبقل
السؤال: 1/ 73

(3) بدلالة النقائذ: 1/ 135 التوافرد المشوق صـ 174.
المسألة الثالثة: التي عرض لها ابن المقيم:

وي是真的 تكرير الأفعال، وما أشتق منها في حق صلى الله عليه وسلم بلفظ المستقبل وذلك حين أخبر عن نفسه، وأما حين أخبر عن الكافرين، فقد أخبر بلفظ الماضي.

يعرض ابن المقيم لهذه المسألة، وبعد أن ينتهي من تقريرها، نراه يجيب عنها فيقول: في ذلك سر وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله عليه - صلى الله عليه وسلم من الزنا والإمهاش عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره. وإن معبود واحد في الحلال والمال على الدوام لا يرضي به بدلا ولا يبغى عنه حولا. بخلاف الكافرين فإنهم يعدون أهواءهم. ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم.

فهذا يصدق أن يعودوا اليوم معودا، وعده غيره، فقال (لا أعلم ما تعودون) يعني الآن (ولا أعلم عابدون ما أعباد) أنا الآن أيضا ثم قال (ولا أنا عابد مالم عبدتم) يعني ولا أنا فيما يستقل بصدد منع عبادة لما عبدتم أي الكافرون / هـ. وهنا نلاحظ أن ابن القيم جعل هذه الآية معبرة عن المستقبل وليس عن الماضي كما سبق أن قرر وبذلك يكون للآية تفسيران عند ابن القيم أحدهما يتعلق بنفي العبادة في الماضي وعليه فالتعبير اسم الفاعل على سبيل الحكايته كقوله تعالى (وكلهم بادئ) والآخر يتعلق بنفي العبادة في المستقبل وهو الأصل الذي يدل عليه التعبير باسم الفاعل الممنون.

ثم لا يكتفي ابن القيم بهذا بل يشير إلى أن معنى الآية (ولا أنا عابد ما عبدتم) أعمق من هذا فإن في (ما) راحة الشرط، ولذلك وقع الفعل بعدها ماضيا، وهو مستقبل في المعنى كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا. وهو إذ يقرر هذا يرجع إلى كلامه فيدفع عن فكرته التي قررها. ويدفع اعتراضًا افترضه في نفسه فقال:

فإن قال: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل ولا جواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها، فقلنا: لم نقل إنها شرط ولكن فيها راحة منه وطرف من معناه لوقوعها على غير معين وإبهامها في المعبدات وعمومها وآبـًا إذا ذكت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط بابناً على صفحاته فإذا قلت لرجل ما—
تخالفة في كل ما يفعل: أنا لا أفعل ما نقلت (1) أمست ترى من بعض الشرطة قائمًا في كلامك وقصصك وأن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فانى لا أفعله...

فإذا تثبت فقد صحت الحکمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضى من قوله (ولا أنا عابد ما عبدت) بخلاف قوله (ولا أتمن عابدون ما عبد) لبعد ما فيها عن معنى الشرطة تنبىدها من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبد سواء وأن ينقل في المعبدات تقل الكافرون أ. هـ (2) ومن خلال كلام ابن القيم هذا تدرك أن لقوله تعالى في حق الكفار (وأنا عابد ما عبدت) بلفظ الماضى فائدتين:

أحداهما: أن المشعرين غير دائمين على عبادة ما يعبدون، وغير ثابتين على آلهتهم، بل هم دائموا التقلب في عبادة ما يعبدون.

وثانيهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم ثابت رأسه القديم على عبادة الله تعالى وحده وعدم اختيار شريك من دونه، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل وذلك مستفاد من قوله: (ما عبدت) حيث فيه رأيته الشرطة كأنه قال: وما عبدت من معبد فانى لا أعبده من دون الله ...

المسألة الرابعة: وهي إثبات النفي في حق المشركين باسم الفاعل (وأنا أتمن عابدون ما أعبد) كررت مرتين في حق المشركين.

وأما في حقه صلى الله عليه وسلم فقد جاء النفي بالفعل المستقل تارة (ولا أتمن عابدون) وباسم الفاعل أخرى (وأنا أتمن عابدون).

يرى ابن القيم أن لهذا حکمة بديعة وهي: أن المصوص العظيم براءته من معبديهن بكل وجه وفي كل وقت، فأنت أولاً بصيغة الفعل الدالة على الصدوح والتجلد، ثم أنت في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والشبهوت، فإذا فادك في النفي الأول أن هذا لا يقع مني وأفادك في الثاني أن هذا ليس وسمًا ولا صفًا فأنى بنفسك قال: عبادة غير الله لا تكون فعلاً ولا وصفًا فأنت بوصفين لمغفين مقصودين بالنفي، وأما في حقهم فانما أتى باسم الدال على الوصف والشبهوت دونها.

(1) حكذا في بدلالي الفوائد 1/136 وله الصواب ما فعلت بليطابق (ما عبدت).
(2) بدلالي الفوائد 1/135.
الفعل، أى أن الوصف الثابت اللازم العائد لله، منتف عنكم فليس هذا الوصف ثابتاً لكم، وإنما ثبت من نحن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحداً، وإنما الحاجة إلى عبد غيره فسم من عابيه، وإن عبده في بعض الأحيان فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره (1).

من خلال هذا الكلام نعلم أن صيغة الفعل في حق النبي صلى الله عليه وسلم أفادت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتقن عنه عبادة غيره فهو لم يفعل ذلك، وأما صيغة الفاعل في حقه أيضاً فقد أفادت الوصف أى ليس ذلك من صفته ولا من شأني، فالقصود نفى الفعل ونفى الموصف بالشرك.

وأما صيغة الفاعل في حق الكافرين، فقد أفادت نفى الوصف بالتوحيد والإخلاص للعبادة.

ولم يعبر بنفى الفعل في حقهم لأنه وقع منهم عبادة الله لكن بإشراك غيره معه، كما قال سبحانه عن المشركين (ما نعبدهم إلا نصرتما إلى الله زلفى) الزمر: 3 وقال عن أهل الكفاف (وإذا اعتزلتموه وما يعبدون إلا الله) الكافف: 16 ففي ذلك دليل على أن المشركين يعبدون الله ولكن لا يخصونه وحده بهذه العبادة بل يشركون...

المسألة الخامسة: في هذه المسألة ناقش ابن القيم النفية بـ "لا" دون "لن" في قوله تعالى (لا أعيد ما تعودون).

يقول ابن القيم: أنى النفية في هذه السورة بأداء "لا" دون "لن" (1) لأن النفية بـ "لا" أبلغ منه بـ "لن" وإنها أدل على دوام النفية وطوله من "لن" وإنها للطول والمدى في نفيها طال النفية بها واشتد وإن هذا ضدد ما فهمته...

---

(1) ببائع الجوائز 1 / 137.
(2) قال الخليل "لن" أصله لا أن انظر الكشف 4 / 262 وقيل: هو حرف غير مركب وочный صاحب التجوو.

الواق 4 / 299.
الجهمية والمعترضة من أن "إنما تنفي المستقبل (1) ولا تنفي الحال المستمر في الاستقبال أ. هـ.
فأذا نفى النفـ في "أعم وأوسع من" إن "لأنها لا تقص زمنا معينا فهمي تستعمل للماضي (2) وللحال والاستقبال فاقتيد هذا نفى عبادته صلى الله عليه وسلم للأثثنين في كل وقت، تتم هي لا تختص بالأفعال مثل "إن بل تنفي الأسماء كذلك.
ولذلك كان النفي بها أبد.

ومعنى كلام ابن القيم أن "لا أهل على دوام النفي من" إن "أي من حديث
كونها تعم جميع الأزمنة دون انتماء إذا كان التعبير بها مطلقًا أن غير مقيض بوقت
معين فمن يقول لا أفعل هذا اليوم أو غدا وأما "إن فهى نفي المستقبـ.

 قال الزركشي : من خواص "إن أنها تنفي ما قريب ولا يمتـ معتنى
النفي فيها كامتداد معناها أ. هـ (3) .

وقال ردا على المعتزـ وغيرهم من يقولون إن "إن تنفي التأييد في النفي
محتجين في ذلك يقول أهل اللغة إن "إن تنفي التأييد في النفى (4).

---

(1) "إن " تنفي كذلك الحال المستمر في الاستقبال مثل قوله تعالى: ( فلن كلام اليوم إنسيا ) مريم : 22 فقد نفسي
الحال المستمر لكتاب لا تنفي الاستقبال إلى ما لا نهاية مثل "قال صاحب البحر الوافق فمسن
يقول: إن أصاب أو إن أضرب فإما يزيد نفى السفر والشرب في قابل الأزمنة مدة معينة بعدها إلى السفر
وعلى الرب انظر البحر الوافق : 499.

(2) من استعمالات " إن في الماضي قوله تعالى: ( فلا صدق ولا صلي ) القيامة : 31 وقوله تعالى: ( فلا تتحمـ
اللغة ) البلد : 11.

(3) البرهان في علوم القرآن : 4 / 387.

(4) قال فخر الدين الأزرق : ما نقل عن أهل اللغة أن كلمة " إن " لتأييد حال الواحد - رحمه الله - هذه بإطلاق
على أهل اللغة، وليس بهدف بصفحته كتاب معتمد ولا نقل صحيح قال الأزرق : وقال أصحابنا: الدليل
على غياب قوله تعالى في صفة الهمد ( ولن يمتون أبدا ) البقرة : 95 مع أحق أن يتبنيهم الوقت يوم القيامة.
من مفاصل الغيب 7 / 271 : وقال صاحب البحر الوافق " إن " حرف يفيد النفي وغير دواو لا تأييد إلا بقرنة
خارجية عنه فإما دخل على الضار نفى معناه في الزمن المستقبل المخض - غالبا - نينا مواقفنا يقصر أو بطول من
غير أن دواو وستمر. البحر الوافق : 299.

---
قال الزيزكي: الت نفسها لا يدخل على الدوام. التقول: زيد يصوم أيتها
ويعتبر أبداً- أي ليس حتى ذلك أنه لا ينتمي من الصوم أو الصلاة. وهذا يبطل تطعمة الفناء بنان: إن كل على امتثال الروية - أي في قوله تعالى (إن تراقي).
الأحرف: 1419 - ولف نفسي- لا. لكان لهم فيه متعلق أهدى.(1)
فقد كان من حجمه ينتمي إلى فناء رؤية الله تعالى المقصود - لا حجة.
عن كل- في قوله تعالى: (إن تراقي) فقد نظر إلى وقية أن ينتمي كل على اعتقاد (2) الذي لا ينتمي أي أن تراقي مطلقاً في أي وقت لا كان إذا علمنا أن التفتيح الذي عانه أهل اللغة في التفتيح- لن، لا يعني الاستمرار إلى ماله نهائي، ولكن الإله وقية معين،
ففيإذا لا يكون المعتدل، ولا نخرجهم من مسما على دفعهم في مضى - لن تطعية
ولا حجة، والعلم عن الله.
للصفحة المصادقة، وهي إشتمال الروية على النقي المحسوم مساوياً في جانب
الرسول صلى الله عليه وسلم أو في جانب المشتركون.

بقول ابن القاسم: إن هذا نص الأثر في هذه الروية - والسبب في ذلك - أنها
براعة من الشريك، كما جاء في وصفها إنها براءة من الشريك فتصوو دما الأعظم
هو براءة المطلوبة بين الموحدين وال المشتركين، وهذا نقص في بعض الفقهاء في الجانبين تطعيق ببراعة المطلوبة أهدى.(3)

قلت: وفي القرطبي عن ابن عباس: ليس في القرآن فقد غيظنا لإلباس
منها لأنها توحيد وبراعة من الشريك .(4)

وقد مضى في فضائل الروية حيث في داو دفصة (فإنها براءة بين
الشرك).
ثم سكشك ابن القاسم ويقول: هذا مع أنها - أي الروية - متضمنة للإنسات
صريحاً فقوله (لا أعد ما تعدون ) براءة محسنة (ولا أتم عليهم ما أعد)، إنفست

(1) البرهان للزيزكي: 388
(2) أنظر الكشف 2: 112، وانظر مفاتيح الجيب: 727: 271
(3) القرطبي: 315
(4) الفتح للقرطبي: 315
أن له معبدا يعبده، وأنتم برينون من عبادته فتضمنت النفى والإيثاب وطابقت قول
إمام الحنفية (إلى براء مما تعبدون إلا الذي فتنه) الزخرفي: ٢٧٠ وطابقت قول
الفتنة الموحدين (وابذ احتزتهم وما يعبدون إلا الله) الكهف: ١٦ فانتظمت حقيقية
لا إله إلا الله، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرنها بسورة "قل هو الله
أحد" في سنة الفجر وسنة المغرب (١) فإن هاتين السورتين سورة الإخلاص (٢) وقد
اشتملت على نوعى التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهم توحيد العلم
والاعتقاد، المتضمن تنزيه الله، عما لا يليق به من الشرك والكفر والولاء،
وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له
كفا أحد فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصد الذي اجتمعت له صفات الكمال،
ونbye ما لا يليق به من الشرك أصلا، وفرعا، ونظرا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد،
والثاني - توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته
سواء.

بل يكون هو وحد المعصوم، سورة "الكافرون" مشتملة على هذا النوع من
التوحيد، فانتظمت السورتين نوعى التوحيد، وأخلصتله، فكان صلى الله عليه
وسلم يفتح بهما النهار في سنة الفجر ويختم بهما في سنة المغرب وفي السفن أنه
كان يونش (٣) بهما فيكونا خاتمًا عمل الليل كما كنا خاتمينا على النهار أهٍ (٤).
هذا كلام قيم لا يقوى على عرضه بهذه السورة سوى ابن المقيم، فقد ربط رحمة
الله بين سورة الإخلاص (الصد و/or الكافرون) بربط منت، أجله فيه وأجاد
فكل من السورتين تكمل الأخرى، فسورة الصد يتحقق توحيد العلم والاعتقاد،
وبسورة "الكافرون" يتحقق توحيد القصد والإرادة أو العبادة.

ومجموع السورتين تنتظم حقيقة لا إله إلا الله.

١٠٤٨

١) متني في فيضائل السورة ما بدل على ذلك.
٢) متني في أجسام سورة الكافرون أما متني سورة الإخلاص.
٣) متني في فيضائل السورة ما بدل على ذلك كله.
٤) بدائع الروايات ١١٣٨
وهذا يفسر لنا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أنه يبتدئ بهما في أول النهار في ركعتين الفجر، ويختم بهما النهار ويفتح بهما الليل في سنة بعد المغرب، ثم يختم بهما الليل في اليوت.

جزى الله بن القيم خير الجزاء على هذا التحقق الطيب.

المسألة السابعة: وهي مناداتهم بـ ( يا أباها الكافرون) دون الذين كفروا.

يعال ابن القيم ذلك بعد تفيض العلم إلى الله بأن السبب "إرادة الدلالة على أن من كان الكافر وصفاً ثابتاً له لا يفارقه، فهو حقائق أن يتبرأ الله منه ويكون هو أيضاً بريناً من الله، فحقيقة بالموحد البراءة منه فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تتقللون منه فمجانبتكم والبراءة متكم ثابتة دائماً أبداً ، ولهذا تأتي فيها باللفظ الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر. هـ(1) وحول هذا النداء بحوث ذكرها علماء والتفسير لم يتعرض لها ابن المقيم منها.

1- ما أشار إليه القرطبي نقلاً عن ابن الأنبيا رضي الله عنه يقول: "قل للذين كفروا لا أعد ما تعبدين زاعماً أن ذلك هو الصواب. ثم يقول ابن الأنبيا رضي الله عنه يقول: "فما تقول أباها من منطق القرطبي دلالة إضطرار على رب العالمين وتضيع لمغشية هذا السورة وإبطال قسلته الله من أن يبذل نبيه المشركون بخطابه إياه بهذه الخطاب الئزري .... فإن لم يقرأ (قل يا أباها الكافرون) كما أترى الله اسقئ آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسبيل أهل الإسلام لا يسارعوا إلى مثلها.(2)

2- وبحثا أيضاً مسألة العموم والخصوص في هذا النداء ( يا أباها الكافرون) هل هو عام في كل الكافر أم خاص بقوم معينين؟

(1) تفسير القرطبي ص 7316
(2) تفسير القرطبي ص 7316
والجواب أنه خاص بقوم معينين، وهما الموجودون وقت الخطاب الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "نعم إلى السنة، ونعت إليها سنة، لأنه لا يجوز أن يكون قوله تعالى: (لا أعبد ما تعادون) خطابا مع الكل لأن في الكلام من يعبد الله كاليهود والنصارى.

كيف يقول لهم: لا أعبد ما تعبدون؟

وذلك لا يجوز أن يكون قوله (ولا أنتم معدون ما أعبد) خطابا مع الكل لأن في الكلام من أنم وصار بحث يعبد الله.

يقول القاضي الرأي: والحاصل أنا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص، لو حملنا على أنه خطاب مشابهة لم يلازمنا ذلك فكان حمل الآية علاقة بهذا المحمول الثاني أولى.

وقال الجمل: قد يقال كيف يقول لهم (ولا أنتم معدون ما أعبد) الذي هو نفي لإسلامهم، وثينس منه مع أنه مبعوث لهدايتهم ومع أنه كان حريصا على إيمانهم؟

والجواب أن هذا في حق قوم علم الله أنهم لا يؤمنون أبدا فأخبر نبيه بأن بخيرهم بحله لتطهير شقاوته كقل الظهور أ. (8) فهو إذن مثل قول الله تعالى: لنوح عليه السلام (لن يؤمن من قومه إلا من قد أمن) (46): 36.

ودر في سبيل نزول هذه السورة أن الكافرين حين عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعبد إلى سنة وأن يعبدوا إلى سنة نزلت سورة "الكافرون" ونزل قوله تعالى: (قل لأغفر الله تأروني أعبد أيها الجاهلون) الزمر: 14. فلم وصفهم بالجاهل مرة وبالكافر أخرى؟

(8) تفسير القاضي الرأي 16/717.
(9) حاشية الجمل 4/598
(10) قال السيوطي: رواه ابن عبد البر عن أبي هريرة ونصه "علم النسب علم لا ينفع وجهه لا تضر وهو ضعيف، حيث رمز له السيوطي بالضاد انظر الجامع الصغير 2/65."
والجواب على ذلك أن الجهل أصل الكفر أو كما قال النيسابوري: الجهل كالشجرة والكفر كالثمرة وإن كان الكفر أشنع من الجهل لأن الجهل أحيانا يكون غير ضار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن علم الأسباب (علم لا يقع وجهل لا يضر) وخصت سورة "الكافرون" بهذا الخطاب لأن السورة بأسرها نازلة فيهم بخلاف سورة الزمر فقد نزلت فيهم في غيرهم.

قال الفخر الرازي: لم قال تعالى في سورة التحرير (يا أيها الذين كفروا) التحرير : 7 ولم يذكر "قل وها هنا ذكر "قل" وذكره باسم الفاعل? والجواب: أن الآية المذكورة في سورة التحرير إما تقال لهم يوم القيامة وثمامة لا يكون الرسول رسولًا إليهم فأزالموا الواسطة، وفي ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين، فذلك ذكره بنفس الماضي.

وأما هنا فهم كانوا موصوفين بالكفر، وكان الرسول رسولًا إليهم فلا جرم قال (قل يا أيها الكافرون) أ. هـ (1)

وقد ذكر الفخر الرازي ثلاثة وأربعين فائدة لاستهلاك السورة بالأمر (قل).

وقد مضت الإشارة إلى ذلك وقد نقلت بعض هذه الوجهات.

المسألة السادسة: هذه المسألة في سورة سؤال نصه:
ما هي الفائدة في قوله (ل kem بنكم ولي دين) وهل أفاد هذا مفظحة زائدة
على ما تقدم؟

ثم أجاب عنه يقوله: يقول في ذلك من الحكم - واللَّه أَعَلَم - إن النفسي الأول أفاد الابراءة وأنه يتصور منه ولا ينبغي له أن يعبد معهدهم وهم أيضا لا يكونون عابدين لمعيدهم. وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقدمهم ونصبهم فجري ذلك مجري من أقتضى هو وغيره أرضا، فقال له: لا تدخل في حدق ومدخل في حدق لك أرضك ولي أرضي فتضمنت الآية أن هذه الابراءة أقتضت أننا أقتسمنا خطتنا بيننا فأصبنا التوحيد

(1) تفسير الفخر الرازي 16/ 716.
والإيمان فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والمشرك به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به لا تشرككم به أ. هـ (1)

وحالفن كلام ابن القيم أن النفى الذي جاء في أول السورة وهو ( لا أعد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعد ) أفاد براعه من معيديهم وأنه لا مستصور منه عبادة معيديهم، وهو كذلك لا يتصور منهم عبادة الله. ثم كانت هذه الآية الأخيرة ( لكم دينكم ولي دين ) نتائج لهذا النفي وتلك السبراء. وهى اقتسام التوحيد والشرك بينهما فكان نصيب النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد. ونصيبهم الشرك والمالك.

وتحليل ابن المقيم هذا يرد على من ظن أن الآية جاءت لتقفر كلا على دينه.

وحينئذ تكون الآية مخصومة أو مسومة.

وهذا ما سيأتي الحديث عنه في المسألة العاشرة إن شاء الله تعالى.

المسألة السابعة: وهي تقدم ما يختص بالنكف وفتي آخر السورة ( لكم دينكم ) (2).

على ما يختص به صلى الله عليه وسلم ( ولي دين ).

وفي أول السورة قادما يختص به ( لا أعد ما تعبدون ) على ما يختصون به ( ولا أنتم عابدون ما أعد ). فما السر في ذلك؟

برى ابن القيم أن في ذلك من أسرار الكلام وبديع الخطاب ما لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، ويقرر أن ذلك من قبيل التهنئة بهؤلاء الكفار الذين رضوا بان الشرك نصيبهم وحظهم بل فرحوا بذلك.

ويضرب ابن القيم لذلك مثلًا بمن اقسم على مثلاً وهو وحده سامًا وشفاء فرضى مقاسمه بالاسم، فإنه يقول له: لا تشاركوني في قسمى ولا أشاركونك في قسمك للك قسمك ولي قسمى.

---

(1) بدللفوانيد 1/1359

(2) تقدم الخير على المزيد هنا يقيد الحصر أي هذا دينكم وحدهكم لا ينال منه شيء فهو خاص بكما ولا ينعدم كم.
تقدم ذكر قسمه هنا أحسن وأبلغ كأنه يقول له: هذا قسمك الذي أترته بالتقديم وزعتم أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم، فكان في تقديم ذكر قسمه من النهج به والتداعي على سوء اختياره، وقبل ما رضيته لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه والحاكم في هذا هو الدوق ... (1).

هذا وجه في الجواب عن السؤال المطروح.

ثم ذكر ابن المقيم وجهها آخر يرى فيه أن السبب في تقديم (لكم دينكم)
على (لى دين) هو المطابقة أول السورة لأخرى لأنها بدنت بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم مما يعد المشركين، ثم جاء قوله (لكم دينكم) ليطابق ما ابتدأت به السورة من براءة النبي صلى الله عليه وسلم من عبادة غير الله كأنه قال: لا أعبد غير الله مما تعبدي، فهذا شأنكم أنتم، وذلك دينكم الذي تختصون به أما أنا لدن.

وذلك يكون الكلام منسجماً غاية الإنصاص إذا المقصود براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما يعد المشركين وما يدينون به. ونص كلام ابن المقيم في هذا.

وهناك وجه ثان وهو أن مقصود السورة برأته صلى الله عليه وسلم من دينهم ومعبودهم هذا هو ليها وعرفها، وجاء ذكر براحتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكمل لبراعته محققة لها. فما كان (لكم دينكم) مطابقًا بهذا المعنى أي لا أشتركم في دينكم ولا أوفاقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به لا أشتركم فيه أبداً فطابق آخر السورة أو لها فتأصله أ. هـ. (2).

لاستدلال الفاعلة: تتطرق هذه المسألة كذلك بلقوله تعالى (لكم دينكم ولي دين) من حيث هل هو إقرار فتكون الآية مخصوصة أو منسوجة؟ أو المر ليس كذلك بالمرة؟

يقول ابن الققيم: هذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة وقد غلط في السورة خلافًا وظن أنها منسوخة بآية السيف (3) للاعتقادهم أن هذه الآية

---

(1) بناء على الفوائد 1 م 140.
(2) بناء على الفوائد 1/140.
(3) وهذا أجراً الغرفي ص 731.
اقضت التقرير لهم على دينهم وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على
دينهم، وهو أهل الكتاب وكلا القولين غلط محض، فـلا نسيخ في السورة ولا
تخصيص لأنها لا تتضمن إقرار الكفار على دينهم بدليل أن النبي صلى الله عليه
 وسلم ظل سنوات طوال يجادل الكفار من أجل طرح عبادة الأصنام والإقال على
عبادة الله، ولم يقصر في ذلك يوماً، فكيف يقال إن هذه الآية إقرار لدين الكفار.
ثم إن هذه الآية من آيات العقائد، موضوعها هو التوحيد، الذي من أجله
بعث الله الأنبياء و المرسلين، موضوع كذا لا يدخله النسخ.
و قصارى ما تحتمله الآية أو تحمله هو تهديد الكفّار والتهكم بهم، أي
سوف تعلمون المصير الذي ستتصلون إليه بدينكما فهو كقوله تعالى: ( اعملوا ما
شتم) (1) فكيف يقال بعد ذلك: إن الآية منسوبة بآية السيف؟!!
هذا ما يسر الله به وله الحمد في البداية والنهائية

(1) سورة فصلت : 40
قائمة بأهم المراجع

1- القرآن الكريم جل من آزله.

2- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - دار الفكر.

3- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الأغزالة - ابن المنير - ط الدار العالمية بـها المش الكشاف للزمخشري.

4- النموذج الجليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آئ التنزيل - زين الدين الرازي - هدية مجلة الأزهر عدد رجب 1410.

5- بدائع القوائد - ابن القيم الجوزية - دار الفكر.

6- البداية والنهاية - الحافظ ابن كثير - دار العهد العربي.

7- البرهان في علوم القرآن - الزركشي - دار التراث.

8- تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - دار التراث.

9- تفسير جزء عم - الإمام محمد عبده - ط محمد علي صبح.

10- تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير - المكتب الثقافي.

11- تفسير غرائب القرآن - نظام الدين النيسابوري - دار الحديث بـها مش تفسیر الطری.

12- تناسق الدور في تناور السور - السيوطي - دار الاعتماد.

13- جامع البيان في تفسير القرآن - ابن جرير الطری - دار الحديث.

14- الجامع الصغير - السيوطي - ط مصطفى الحلبی.

15- الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبد الله القرطبي - ط الشعب.

16- حاشية الجمل على الجلالتين - لأبي سليمان الجمل - ط عيسى الحلبی.

17- سنن ابن ماجة - ابن ماجة القروي - وإحياء الكتب العربية.

18- سنن أبي داود - لأبي داود السجناتي - دار الفكر.
19. سنن الترمذي - لأبي عيسى الترمذي - دار الحديث.

20. صحيح البخاري - الإمام البخاري - مكتبة القاهرة مع شرح فتح البارى.

21. صحيح مسلم - الإمام مسلم بن الحجاج - دار الغد العربي مع شرح النووي.

22. طبقات المفسرين - شمس الدين الداودي - دار الكتب العلمية.

23. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - ابن القيم - دار الكتب العلمية.

24. الكشف عن حقائق التنزيل - الزمخشري - الدار العالمية.

25. لباب التنزول في أسباب التنزول - السيوطي - مكتبة نصير.

26. مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - دار الغد العربي.

27. النحو الوافي - عباس حسن - دار المعارف.